من أدب التاريخ

شـــاعر ومنجم ...

للأستاذ محمود عزت عرفه

العهد عهد الخليفة المستعين أبي العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ، ذلك المتولي في الخامس من ربيع الآخر عام ٢٤٨هـ ، إثر وفاة الخليفة المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل وقاتله . والشاعر هو الوليد بن عبيد الله البحتري المكنى أبا عبادة ؛ أما المنجم فهو جعفر بن محمد البلخي ، المكنى أبا معشر

ولم يكن أبعد من هذين الرجلين على عهدهما صيتاً ، ولا أثبت منهما في فنيهما مقاما ؛ ومع ذلك فقد لقيا أيام المستعين من الجفاة والإعراض وقلة المبالاة ما ضاق معه عيشهما ، وانسدت به مسالك الحياة الهنيئة دونهما

فقد كان الأول شاعر المتوكل الأثير ... شهد بعينيه مصرعه الرهيب على يد ابنه وولى عهده ، وسمع بأذنيه – بعد حين – قصة نقض البيعة الموثقة التي عقدها المتوكل لولده المعتز من بعد أخيه ؛ فكان حزن الشاعر على الخليفة المصروع لا يوازيه إلا عطفه على الأمير المخلوع

ولما عجلت بالمنتصر ميتته المريبة فاتي بها أول ما يلقاه كل عاق ناكث للعهود ، بادر نصراؤه من قواد الأتراك إلى تنصيب المستعين بالله على عرش الخلافة ؛ إمعاناً منهم في إقصاء المعتز الذي طال بتدبيرهم حرمانه ، وتنزت بسبب ذلك في صدره السخائم والأحقاد عليهم

وزادوا على هذا أن ألقوا بالمعتز في غيابة السجن ، مع أخيه المؤيد ثالث أولاد المتوكل وأولياء عهوده ؛ فلم يكن لشاعر كالبحتري أن يظهر في مثل هذه الفترة ، أو أن يؤمل عند المستعين وشيعته جاهاً ...

ذلك موجز حديث أبي عبادة ؛ أما صديقه أبو معشر فأيسر ما تقول فيه أن المستعين كان يعتدّ له من الإحسان ذنباً ، ويتجنى عليه ببالغ العقوبة أشد ما يكون ترقباً منه للاحسان والمثوبة ؛ حتى لقالوا إنه ضربه مرة أسواطاً على ما صح من حدسه في أمر أخبر بوقوعه قبل حينه ، فكان أبو معشر يعجّب الناس من ذلك ويقول : أصبت فعوقبت !

أمضى الصديقان عاماً من خلافة المستعين وهما أبأس ما يكون حالاً ، وقد انعقد واهي أملهما على سجين قصر الجوسق بسامرّاء ، أبي عبد الله المعتز ، وكان معتقلاً هنالك مع أخيه ابراهيم المؤيد .

ولقد كان من حقهما أن يستمسكا بهذه الآمال التي عقداها على الأمير المسجون لما كان يشهدانه من اضطراب حبل السياسة في يد المستعين ؛ إذ راح الأتراك يقتتلون بدافع أطماعهم حول دعائم العرش التي أقاموها بأذرعهم ، وبلغ من ضعف نفوذ الخليفة يومئذ أن امتدت أيديهم إلى وزيره (أتاش) وهو قائم بين يديه في قصره ، فسلبوه الحياة مع كاتبه (شجاع) ، وقد حدث ذلك يوم السبت رابع عشر ربيع الآخر عام ٢٤٩هـ

ومن الطريف أن ترى البحتري – وقد قرت عينه بهذا الحادث دون شك – يبعث إلى المستعين بهذه الأبيات مادحاً ومهنئاً في موضع كانت السخرية فيه أقرب إلى لسانه ، والتشفي أعلق بفؤاده :

لقد نُصر الإمام على الأعادي ... وأضحى الملك موطودَ المهاد
وعرفّت الليالي في (شجاع) ... و(تاش) كيف عاقبة الفساد
تمادى منهما غيّ فلجّا ... وقد تُردي اللجاجة والتمادى
وضلا في معاندة (الموالي) ... فما اغتبطا هنالك بالعناد !

وما نشك في أن البحتري كان أصدق في شعوره ، وأبلغ في الإبانة عن وليجة نفسه ، حين انكفأ غبّ ذلك إلى بيته يناجي خادمه « نائلا » بخفي أمانيه فيقول :

ألا هل يحسن العيش ... لنا مثل الذي كانا ؟
وهـــل ترجع يا نائـ ... ـلُ بالمعتز دنيانا ؟
عدمت الجسدَ الملقَى ... على كرسي سليمانا ...
فقـــد أصبح للفتـ ... ـنة نقلاه وثقلانا !

***

إزداد نفوذ المستعين بين رعاياه تقلصاً ، حتى لأصبح « الجسد الملقى » حقيقة كما وصفه البحتري . وانتهى الأمر بأن انحازت إليه جنبة من الأتراك على رأسها وصيف وبغا ؛

وراحت شعبة أخرى يقودها باغر تدبر له الكيد وتعشى حوله الضراء من كل سبيل . ثم قتل باغر بتدبير من حزب الخليفة ، فثارت ثائرة أنصاره حتى لم يجد المستعين بدًّا من الانحياز إلى بغداد (فى المحرم عام ٢٥١هـ)

وتناهت هذه الأخبار إلى البحترى وأبى معشر وهما فى معتكفهما ، فأقبلا يتداولان فى الأمر مليًّا ، ويجددان من قديم أمنيتهما ، وقد أمّلا أن تطّرد الحوادث فى طريقها حتى تفضى بهما إلى كل ما يسر ويرضي ... ثم انبعثا يقولان : وماذا علينا والحال كما نرى ، أن نمضى إلى المعتز بالله فى محبسه فنتودد إليه ونؤصل عنده أصلاً ؟

وطابت لديهما الفكرة فجدًّا فى إنفاذها ، واحتالا حتى توصلا إلى لقيا الأمير فى معتقله . ولم يكن البحترى قد أعد لهذا اللقاء شعراً ، وأى شعر يقال لسجين يترقب الموت فى كل لحظة !

على أنه فكر هنيهة حتى استرجع فى ذهنه أبياتًا له قديمة كان قد واسى بها أبا سعيد الثغرى وهو فى معتقله أيام المتوكل ، فأعاد تحريرها فى رقعة لطيفة ، وكان أبو معشر قد هيأ صحيفة فى أحكام النجوم سهر على ضبطها وتصحيحها الليالى الطوال

وفى إحدى غرف الجوسق مثل الرجلان أمام المعتز فواسياه بما تهيأ لهما من كلام . ثم استأذن البحترى فى الإنشاد ، وتلا أبياته من رقعتها ... كأنه نظمها من يومه :

جُعلنا فداك ، الدهر ليس بمنفكّ
من الحادث المشكوّ والنازل المُشكى
وما هذه الأيام إلا منازل فمن منزل رحب ومن منزل ضنك
وقد هذبتك الحادثات ، وإنما
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك
أما فى نبى الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الجور والإفك؟
أقام جميل الصبر فى السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك
على أنه قد ضيم فى حبسك العلا وأصبح عز الدين فى قبضة الشرك

وأصغى المعتز إلى الشعر فى تأثر ، ثم تناول الرقعة ودفعها إلى خادمه وقال : احفظ هذه وغيبها ، فإن أفرج الله عز وجل عنى فذكرنى بها لأقضى حق هذا الرجل الحر

وتقدم أبو معشر فقال : إنى جئتك والله أيها الأمير بأعظم البشرى وأصدقها . كنت قد أخذت مولدك يوم عقد لك العقد ، ويوم عقدت البيعة للمستعين ، فنظرت فى ذلك ، وصححت الحكم لك بالخلافة بعد فتن وحروب تجرى . وصح عندى الحكم على المستعين بالقتل ، وهاك صورة مما عملت

فتناول المعتز الصحيفة مستبشراً ، وشكر للرجلين نبلهما ووفاءهما ، ثم وعدهما ومناهما . فخرجا وهما أكثر الناس رضاء وأرحبهم أملاً ...

* * *

وانقضى شهر على حادث المستعين إلى بغداد جرت أثناءه مداولات غير مثمرة ، ثم آب الثائرون إلى سر من رأى فأخرجوا المعتز من الجوسق وبايعوه بالخلافة . واضطرمت نار الفتن والحروب عاماً كاملاً خلع فى نهايته المستعين ، ثم نقل مخفوراً إلى « واسط » حيث قتل بعد أشهر . واستقر أمر الخلافة للمعتز ... وهكذا صدق فأل البحترى وصحت نبوءة أبى معشر

ومثل الصديقان بعد حين أمام المعتز فهش لهما وبش ، ورفع من مجلسهما حتى رمقتهما العيون بالغبطة ، ثم قال لأبى معشر : لم أنسك منذ لقيتنى ، ولقد صح حكمك ، وأنا مجر لك فى كل شهر مائة دينار رزقاً وثلاثين نُزُلاً ، وجاعلك رئيس منجمى دار الخلافة . ثم قد أمرت لك عاجلاً بإطلاق ألف دينار صلة ... فقبض أبو معشر ذلك كله من يومه

أما البحترى فقد أنشد فى ذلك اللقاء بائيته المشهورة :

يجانبنا فى الحب من لا نجانبه ويبعد عنا بالهوى من نقاربه

وفى القصيدة مدح للمعتز وهجاء للمستعين ؛ ونحن ندع للقارئ أن يراجعها بتمامها فى ديوان البحترى ، ولكنا نختص مع ذلك بالتسجيل هنا قوله :

بكى المنبر الشرقى إذ خار فوقه على الناس ثور قد تدلت غباغبه
تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله فطوراً ينازيه وطوراً يشاغبه
ولم يكن المعتز بالله إذ سرى ليعجزه (المعتز بالله) طالبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر وعُرّى من بُرد النبى مناكبه
وقد سرنى أن قيل وُجّه عارياً من الشرق تحدى سفنه وركائبه